وسترافنسكي وموسيقى الكترونية حديثة » (ص ٨٩) . ومع كل ذلك هل كان وديع عساف بعيدا عن النضال الفلسطيني ؟

يروى وديع عساف احدى مغامراته الحربية زمن الشباب مع صديقه فايز ضد الصهيونيين . لقد اشتريا رشاشا وقنابل يدوية وهاجما مصفحة صهيونية ، وبعد أن دمراها يقتل فايز فيعود وديع الى المصفحة المدمرة ليجد اربعة من الصهيونيين يقتلهم ثأرا لصديقه .

مع من كان الصديقان يحاربان ؟ لا نعرف وربما كانا يقاتلان لحسابهما الشخصي او أنها مغامرة ، والا فما هي علاقة « نضالهما » بالنضال العام ؟ لقد قدمت هذه الحادثة في الرواية وكأنها مغامرة شخصية لصديقين ، وبعدها يصبح وديع تاجرا كبيرا ، يفكر بفلسطين والقدس مثلما يفكر أي تاجر مهاجر ببناء فيلا في مسقط رأسه ليرتاح فيها من تعب حساباته ، وربما من المفيد عند هذه النقطة ان تقارن بين شخصيات « غسان كنفاني » الفلسطينية ، تلك التي تموت في قيظ الصحراء وهي هاربة الى الكويت تبحث عن عمل ، وبين فلسطيني « جبرا ابراهيم جبرا » ، التاجر الناجح في الكويت اياها والذي لا تعني له فلسطين هما معاشيا وحياتيا وفقدانا للعمل ، بل مجرد ذكرى طفولة وشباب مضى ، وحنين الى جذور قديمة في مسقط الرأس ان فلسطين لدى وديع عساف هي ماض شخصي ، بينما هي لدى شخصيات « غسان كنفاني » الهاربة الى الكويت حرمان من حق الحياة والعمل معا .

وديع عساف يتذكر مغامرة شبابه الحربية تلك وهو في رحلته على ظهر السفينة السياحية التي تتجول في المتوسط ، وبعد انتهائه من سرد ذكرياته تلك يقدم لنا الكاتب مباشرة المشهد التالي .

« اقيمت حفلة الرقص . كانت جاكلين بين ذراعي في خفة الريح رغم ازدحام القاعة ، وعندما اشتدت الموسيقى الحاحا ووحشية ، ارتمت على صدري كأنها تبغي ان تندس بين عظامي ، ذكرت فايز . ذكرت الصخور . ذكرت الموت والميلاد وفمي يمسد شعرها القصير ، ويتحسس اذنها الصغيرة . واذا هي تسحب اذنها عن شفتي وتهمس ضاحكة : « اوه ، انك تثيرني . هل حقا تفكر بي ؟ » (ص ٧٥) .

في اي عمل روائي او سينمائي يشكل تتالي مشهدين مونتاجا ، هذا المونتاج الذي هو وضع مشهد بعد مشهد يؤدي الى تصور جديد من تركيب المشهدين . فما الذي يمكن استخلاصه من تتالي مشهدى : الماضي المقاتل ، والحاضر الراقص ؟ مع ملاحظة المنحى العام للشخصية التي يتركب المشهد العام من ماضيها ، وحاضرها ، ان فلسطين في وعي وديع عساف هي ذاكرة مضت ؛ انه يتذكرها كشباب انقضى ، وهي تعيش في نفسه كحنين لا كقضية ؛ فقضيته تتحدد بنمط حياته الحاضر ، وبهذا فان حديث وديع عساف عن الارتباط بالارض ليس اكثر من حديث بلاغي عاطفي ، ثقافي . يخاطب وديع عساف عصام السلمان المسافر الى لندن قائلا : « نعم في بغداد . حريتك لن توجد الا فيها . انها لن توجد في الـ « هناك » الضبابي ، الوهمي ، المغرى ، في اوروبا او غيرها . هناك التلاشي في التفاهة . هناك الهزيمة الحقيقة ، اتعلمين يا لمى ان عصام ادعى انه كان هاربا منك ؟ اما انا فأقول انه كان هاربا من مدينته ، من ارضه ، وحريته لن تكون الا في مدينته ، في ارضه ، اتسمع يا عصام ؟ في ازقة بلدك في بساتينه . في صحاريه » (ص ٢٤٠) .